الدرس التداولي: الجذور والروافد- قراءة كرونولوجية-

د. عمر بوقمرة

جامعية حسيبة بن بوعلي – الشلف – الجزائر

ملخص:

جاءت التداولية كرد فعل على المناهج اللسانية السابقة التي تعاملت مع النصوص كبنية شكلية مغلقة غير عابئة بملابساتها الخارجية؛ ولست أعني هنا إلا المنهج البنوي - بروافده المختلفة - الذي وصل به التطرف في بحث اللغة في ذاتها ولذاتها لدرجة إعلان موت المؤلف. وهذا البحث يجتهد في استكشاف جذور التداولية وتطوّرها بدءا من الإرهاصات الأولى للانفتاح التأويلي عند **بيرس**، إلى الانفتاح التداولي عند **موريس**، وصولا إلى الأفعال الكلامية التي تطور البحث فيها حتى غدت بحثا تداوليا خالصا مع **أوستين** و**سيرل**.

Abstract:

Pragmatics was a reaction to the previous linguistic methods, which have dealt with texts as a closed structure. And I mean here the structural method and its different approaches, which reached its extremism in search of language itself and for itself and have declared the death of the author. This Research tries to explore the roots and evolution of pragmatics starting from the constitution, I.e, from the hermeneutical openness with Peirce, to the Pragmatical openness with Morris, right down to speech acts developed by Austin and Searle.

1- مقدمة: إهمال المعنى وأثره في نشأة البحث التداولي:

إن لجوء اللسانيين لهذا المنهج التداولي الحديث ناجم عن قصور الدراسات الشكلية، وإخراجها لكل مقاربة لغوية تضع نصب عينيها العناصر غير اللغوية من دائرة اهتماماتها "لذلك يرى" **ليفنسون:**" أن الأساس الأول في نشوء المنهج التداولي كان بمثابة ردة فعل على معالجة **تشومسكي** للغة بوصفها شيئا تجريديا، أو قصرها على كونها قدرة ذهنية بحتة، غفلا من اعتبار استعمالها ومستعملها ووظائفها".[1]

لقد سعد الأمريكيون كثيرا بفكرة أن اللسانيات علم فيزيائي، ولذلك لم يدّخروا جهدا للتخلص من إقحام المعنى في إطار اللسانيات، وحتى عندما فتح **تشومسكي** باب الدلالة التوليدية التي حاولت تطبيق نموذج النحو التوليدي لحل مشكلات تداولية اكتأدتها، كالافتراض المسبق، والقوة الإنجازية، فشلت في ذلك فشلا ذريعا؛ والسبب واضح جدا لأن النحو التوليدي يرى أن اللغة ظاهرة عقلية تتكون من مجموعة من الجمل، وإذا كان الأوروبيون قد درسوا اللغة لا الكلام فإن الأمريكيين قد درسوا ما يقابل اللغة والذي دعاه **تشومسكي** بالكفاءة مهملين ما يقابلها وهو الأداء، لقد " أبعد أي اعتبار يخص استخدام اللغة ووظيفتها ... فهو يهتم بنظرية

[1] عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2004م، ص 21.

الكفاءة أكثر من اهتمامه بنظرية الأداء، إن هذا التعريف يعني أن اللسانيات تهتم بالنواحي العقلية وتبتعد قدر الإمكان عن التلوث بآثار الاستخدام والسياق ".[1]

وكان لهذا الإبعاد آثاره السلبية، إذ بدأ النحو التوليدي يفقد مكانته، وأصبح اللسانيون "يرفضون الاقتصار على دراسة الجمل اللغوية على نحو تجريدي بمعزل عن السياقات التي تستخدم فيها، رافضين فكرة **تشومسكي** بشأن المخاطب السليقي المثالي".[2] وفي أوائل السبعينيات صار الاهتمام بالمعنى في الاستعمال أكثر من الاهتمام بالمعنى المجرد، وأُوليت أفعال الكلام عناية خاصة "وهكذا برزت التداولية في اللسانيات الوظيفية".[3]

ولكن هذا الظهور لم يكن فجائيا بل وليد أعمال تراكمت، وجهود تضافرت، وأفكار تنوقلت عبر بضعة عقود لترسوَ على منهج لساني، كان له القَدَح المُعَلَّى في تحليل الخطابات وتأويلها، ولايزال كذلك.

2-التبشير بالتداولية - سميوتيكا بيرس وسميولوجيا سوسير-:

إن المتفحص للسيمياء بوصفها منهجا علميا معاصرا يجد لها أصلين هما: **بيرس** (1839م ، 1914م) بوصفه منطقيا، و**سوسير**(1857م،1913م) بوصفه لسانيا، وقد اختلف الدارسون فيمن حاز قصب سبق التبشير، فبعضهم يرى أن

---

[1] صلاح الدين صالح حسنين: الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ص189.

[2] محمد محمد يونس علي: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2004م، ص 15.

[3] صلاح الدين صالح حسنين: الدلالة والنحو، ص190.

دوسوسير هومن بشر بهذا العلم حين قال:" ويمكننا إذن تصور علم يدرس حياة العلامات في صدر الحياة الاجتماعية، وهو يشكل جانبا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي من علم النفس العام : إننا ندعوه بالأعراضية ".[1] في حين يؤكد **لودال** أسبقية **بيرس** على **سوسير** قائلا: " إن سبق **سميوتيكا بي**رس على سميولوجيا **سوسير** شيء لا يناقش" .[2]

وقد يكون ما ذهب إليه **لودال** أقرب إلى الصواب لأمرين اثنين:

أولهما: ظهور البحوث السيميائية في الفلسفة الرِّواقية منذ وقت مبكر، قد يعود إلى ألف سنة، وربما إلى ألفي سنة [3]، وكذلك عند العرب حيث عرّف **ابن خلدون** السميولوجيا: "بأنه علم يُعنى بأسرار الحروف والسحر والطلسمات، إلا أن نشأته كانت في أحضان علوم مختلفة؛ كالبلاغة، والأصول، والتصوف، والمنطق، والفلسفة، وغيرها".[4]

ثانيهما: أكد **جون لوك** في تاريخ مبكر يعود إلى عام 1690م في تصنيفه لمجالات الدرس العلمي أن المنطق كان مجرد فرع من تخصص أوسع منه هو

---

[1] فرديناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986م، ص 27 .

[2] غريب إسكندر: الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، المجلس الأعلى للثقافة،2002م، ص15.

[3] ينظر: إيكو أمبرتو – ملف خاص به – مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الخامس 1919م، ص 144 .

[4] غريب إسكندر : الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، ص 15 .

السيميائية، التي تشمل دراسة العلامات المستعملة في الفهم والتواصل"[1]؛ وتأثر **بيرس بلوك** واضح في مطابقته بين المنطق ونظرية العلامات، فليس :" المنطق بمفهومه العام كما أعتقد أنني قد أوضحت إلا اسما آخر للسيميولوجيا".[2]

3- تصنيف بيرس للعلوم وموقع التداولية منها:

قسم بيرس العلوم إلى ثلاثة أقسام و تقع السيمياء في الصنف الأول منها حسب رأيه، وهي:

1- علم الاكتشاف SCIENCE OF DISCOVERY:كالرياضيات، والعلوم، **والفلسفة**، أو بعبارة أخرى هو تلك العلوم المهتمة باكتشاف الحقائق الجديدة وتكديسها .

2- علم المراجعة SCIENCE OF REVIEW: وهو لا يعطي حقائق جديدة، بل يعنى بتنظيم وتصنيف الحقائق المكتشفة في الصنف السابق.

3-العلم التطبيقيPRACTICAL SCIENCE: ويهتم بالقضايا التطبيقية، ويتضمن الجزء الأكبر، ومنها ما يسمى اليوم بالتكنولوجيا.

وتنقسم **الفلسفة** التي تنتمي إلى الصنف الأول إلى ثلاثة أقسام، وهي: ما وراء الطبيعة METAPHYSICS، وظاهراتية PHENOMENOLOGY،

---

[1] ميليكا إفيتش: اتجاهات البحث اللساني ، ترجمة سعيد عبد العزيز مصلوح ، وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000م ، ص 358 .

[2] غريب إسكندر : الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، ص 16 .

ومعيارية NORMATIVE، وهذه الأخيرة تنقسم بدورها إلى ثلاثة أقسام، وهي: علم الجمال، وعلم الأخلاق، **وعلم المنطق والسيمياء.**[1]

وإذا كان **لودال** قد أكد بما لا يدع مجالا للشك أسبقية **سميوتيكا** بيرس على **سميولوجيا** سوسير؛ عندما جعل المنطق فرعا من علم أوسع منه ألا وهو السيمياء، الذي يهتم بدراسة العلامات المستعملة في الفهم والتواصل اللغوية منها وغير اللغوية، فإن تبشير **سوسير** بعلم يدرس العلامة في صدر الحياة الاجتماعية كان له وقعه في البحث التداولي، لقرب البشارة، وصدق العبارة .

4- العلامة اللغوية الموسعة عند بيرس:

لعل أهم ما أفادته التداولية من **بيرس** هو نظرته الموسعة إلى العلامة، حيث قسّمها إلى ثلاثة أنواع، من منظور علاقة المصوِّرة أو الممثل REPRESENTAMEN – وهي الدال عند **سوسير** – بالموضوع الذي تشير إليه (OBJET) وهي:

أ – **العلامة الرمز** SYMBOL: وتكون العلاقة فيما بين المصورة والموضوع قائمة على الوضع والاصطلاح والعرف، وهذا هو الظاهر في العلامات اللغوية، والكودات الثقافية، كاتفاق الناس وتواطئهم أن يكون لباس الأسود دليل الحزن، والأبيض دليل الفرح، وليس بين الأسود والحزن وبين الأبيض والفرح أي علاقة سوى التعارف على ذلك بين أبناء الجماعة اللغوية الواحدة.

[1] ينظر: غريب إسكندر : الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، ص 25 – 26.

ب – العلامة الأيقون ICON: وتكون العلاقة فيها بين المصورة والموضوع قائمة على أساس الشبه، أي أنها علامة تدل على موضوعها بأن ترسمه أو تحاكيه؛ ولذلك لابد أن تطابقه أو تشاركه في بعض الصفات، كما هو الحال في الصور الفوتوغرافية، والرسومات المعمارية، والتماثيل، وغيرها.

ج _ العلامة الإشارة INDEX: وتكون فيها العلاقة بين المصورة والموضوع علاقة مجاورة، بحيث تكون العلامة وما تشير إليه طرفان في وضعية وجودية واحدة، كما هو الحال بالنسبة للدخان والنار، والأثر والممر، والحمرة والخجل.[1]

فهذه التفريعات والشروح الوافية للعلامة وأنواعها اللغوية منها وغير اللغوية من قبل **بيرس**؛ جعلت الأخيرة تبدو وكأنها **علامات مساعدة للأولى** (عاضدة)، أو سياقات تضبط المعنى، ولذلك كانت العلامة عنده ثلاثية الأبعاد: الممثل أو المصورة – الدال عند **سوسير**– ، والمفسرة – المدلول عند **سوسير** – ، والموضوع وهو الشيء الخارجي والذي أقصاه **سوسير** من بحثه، وهو في ذاته علامة، فالإنسان نفسه علامة، وحين نفكر فنحن علامة، وإلى حد ما يعد امتلاك الجسم جزءا من التميز المادي للإنسان علامة.[2]

---

[1])ينظر: فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986م ، ص19 .

[2] ينظر: المرجع نفسه، ص 15.

5- الفلسفة التحليلية تميز بين اللغة العلمية واللغة العادية:

جاء الفيلسوف والرياضي الألماني **غوتلوب فريج** GOTLOB FREGE الذي عاش بين سنتي(1848م) و (1925م)؛ فأسس لما يسمى بالفلسفة التحليلية بمفهومها العلمي الصارم في كتابه: "**أسس علم الحساب**"[1]، وتابعه **برتراند رسل** B . RUSSEL (1972م . 1970م)؛ فالفلسفة التحليلية في الحقيقة هي نتاج تطوير النظرية الفلسفية التي تسمى:"منطوقية" LOGICISME ؛ ما أدى إلى تفضيل الفلسفة التحليلية على النظريات التي تسمى بـ " التأليفية " وعليها بنيت فلسفة أوستين فيما بعد.[2]

ومن أهم الأفكار التي جاء بها **فريج** ودعمها **رسل** تتمثل في حرصهما الشديد على تمييز اللغة العلمية التي يهمها ما يساعد على تحديد الحقيقة، من اللغة العادية التي يهمها وبدرجة أولى نجاح التواصل، إذ على الأولى أن تكون ثابتة المعنى محافظة عليه، بينما الثانية هي في حاجة إلى إبهام لتأدية وظيفتها، فهي غنية ومبهمة وغير واضحة، فالأولى تسجل وبدقة عالية روابطها المنطقية. أما الثانية فتدع ذلك فضفاضا مُضَبّبا وغير محدد، وتتمتع اللغة العلمية بالاستقلالية عن علاقات التفاعل والتشخيص، في حين أن اللغة العادية تظل

---

[1] ينظر: مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، دار الطليعة بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2005م، ص 18 .

[2] ينظر: PHILIPE BLANCHET : LA PRAGMATIQUE D'AUSTIN A GOFFMAN COLECTION REFERENCE , EDITION , BERTRAND–LA COSTE , PARIS .FRANCE, 1995, PP14 –15

خاضعة لعناصر التفاعل مشحونة برغبة الإقناع والتأثر، مستعينة بقواعد البلاغة والانفعال .[1]

لقد حسمت الفلسفة التحليلية الأمر في تحديد مهمتها، وهي إعادة صياغة الموضوعات الفلسفية وإشكالاتها وفق قواعد علمية جديدة، موَّلية ظهرها للفلسفة الكلاسيكية، عائبة عليها تركيزها على اللغات الشكلية الصورية؛ ومن هنا راحت تؤكد أن أولى المهام الفلسفية هي البحث في اللغة وتوضيحها. وقد عدّ فلاسفة التحليل هذا المبدأ هو نقطة القوة في منهجهم؛ لأنه لا يمكن فهم علاقتنا بالعالم وما فيه من كائنات بشرية إلا عبر اللغة واللغة وحدها. " إن جميع الحالات الموضوعية لشؤوننا وجميع العلاقات الذاتية مع الأفراد والمجتمع، ومع تاريخ الجنس البشري قائم على أساس لغوي إن أراد أن يكون له معنى، فالطابع اللغوي مرتبط دائما وأبدا بالفهم، مادام المعنى الذي تنقله لنا اللغة لا يصير ملموسا إلا على هذا النحو، فالوجود الذي يمكن أن يكون مفهوما أولا هو اللغة ".[2]

هذا وقد تفرعت الفلسفة التحليلية إلى ثلاثة اتجاهات وهي:

- **الوضعانية المنطقية** POSITIVISME LOGIQUE: بزعامة **رودولف كارناب.**

[1] ينظر: فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص 20.

[2] ينظر: فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 2000م، ص 37.

- **الظاهراتية اللغوية** PHENOMENOLOGIE DU LANGUE:

بزعامة **إدموندهوسرل.**

- **فلسفة اللغة العادية**: PHILOSOPHIE DU LANGAGE ORDINAIRE: بزعامة **فيتغنشتاين** WITGENSTEIN، وهو فيلسوف إنجليزي من أصل نمساوي عاش بين سنتي(1889م و 1951م)، وفي أحضان الفرع الأخير نشأت ظاهرة الأفعال الكلامية بزعامة **أوستن** ثم **سيرل** .

ويرى **فيتغنشتاين** في فلسفة اللغة العادية أن جميع مشكلات الفلسفة تُحَلُّ باللغة "فاللغة هي المفتاح السحري الذي يفتح مغاليق الفلسفة، بل كان يُعتقد أن الخلافات والتناقضات المنتشرة بين الفلاسفة سببها الأساسي سوء فهمهم للغة، أو إهمالهم لها، وراح يطوّر فلسفته الجديدة التي توصي بمراعاة الجانب الاستعمالي في اللغة، فالاستعمال هو الذي يكسب تعليم اللغة واستخدامها".[1] لقد كان **فيتغنشتاين** في أول أمره من أنصار اللغة المثلى أي: اللغة التمثيلية التي لا تقبل سوى الملفوظات القابلة لأن يحكم عليها بالصدق أو الكذب، المنضوية في إطار منطق القضايا؛ لأن هذا هو موضوع لغة العلم، ولكن سرعان ما تخلّى عن دراسة اللغة المثلى لوصف العالم سنة 1918م، وانضم إلى فلاسفة أكسفورد من أنصار

[1] فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداول، ص 23.

دراسة اللغة الطبيعية، وقد استهل هذه المرحلة بكتاب له تحت عنوان "**الأبحاث الفلسفية**".[1]

معتمدا في فلسفته الجديدة على ثلاثة مفاهيم وهي:

1 – الدلالة: حيث أكد فيها عدم الخلط بين المعنى المحصل SENS والمعنى المقدر SIGNIFICATION؛ لأن ذلك يعني عنده خلطا بين الجملة والقول، فالجملة معناها مقدّر. أما الكلام فمعناه محصل.

2 – القاعدة: ويرى فيها أنه يجب على مستعمل اللغة أن يراعي التواضع والاصطلاح الاجتماعي القواعدي، فكما أن لعبة الشطرنج لها قواعدها، فكذلك اللغة، إلا أن **فيتغنشتاين** "يقيد معنى القاعدة الذي لا يعدو كونه لعبة من ألعاب اللغة؛ ونظرا لعدم وجود قواعد معينة تلزم لاعب التنس بارتفاع معين لا يجب على الكرة أن تجاوزه، فإن هذا الأمر يصدق كذلك على من يشارك لعبة اللغة، حيث يتعين أن تمتثل القواعد الأساسية؛ أي الاصطلاحات الاجتماعية، بيد أنه لا يجب أن تجهل القواعد غير الأساسية، بعبارة أخرى القواعد الفردية، والحال أن هذه القواعد هي نماذج ومثل صالحة لعدد من الأحوال والمتكلمين".[2]

3-ألعاب اللغة: JEUX DU LANGUE وهي فكرته الأساسية، ولكنها لا تنفصل عن الدلالة والقاعدة، ومعناها: أنه لا توجد طريقة واحدة لاستخدام

---

[1] ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ص 22.

[2] الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ترجمة محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية- بن عكنون – الجزائر 1992م ، ص 18- 19 .

جملة ما، بل ثمة عدد غير متناه من الطرق التي تتيح لمستعمل اللغة اختيار ما يراه مناسبا.[1]ولذلك تساءل قائلا: "ما الذي يعطي الحياة إلى العلامة ؟ إنها تعيش من خلال الاستعمال فهل تمتلك نفس الحياة في ذاتها ؟ أوإن الاستعمال هو ذاتها؟".[2] إن الأمر لا يتعلق فقط باستعمال كلمة في الجملة، بل يتعدى ذلك إلى استعمال الجملة في مواقف ملموسة وفعلية، ومنها تكتسب معانيها " فوجهة النظر المعبر عنها هي وجهة تداولية بالمعنى الواسع للاصطلاح بحكم ارتباطها بالفعل، وبإطار حركي غير شفوي، وبنهايات تطبيقية؛ ولذلك يفترض على القائل أن يطرح على نفسه جملة من الأسئلة منها: ما مناسبة الحديث وموضوعه ؟ ما أهدافه وغاياته ؟ وما هي الحركات والإشارات التي تصحبه ؟ وفي أي زمان ومكان ومع من ؟ وغيرها من الأسئلة.[3]

6- شارل موريس يوظف المصطلح التداولي الحديث :

جاء **شارل موريس** فاستعمل مصطلح التداولية بمفهومه الحديث عام 1938م، حين أطلقه على أحد فروع علم السيمياء الثلاثة وهي: علم التركيب، وعلم الدلالة، وعلم التداولية، وعرف هذا الأخير بأنه:" دراسة علاقة العلامات بمفسريها، ثم عمم هذا التعريف ليصبح علاقة العلامات بمستخدميها".[4] وجليّ أن

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص 20.

[2] فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية ، ص 22 .

[3] المرجع نفسه، ص 22.

[4] محمد محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، سنة 2007م، ص137.

العلاقة بين هذه المجالات الثلاثة هي علاقة تكامل، وليست علاقة تواز أو إبدال، لأن الفهم التام للملفوظات القولية لا يتم إلا إذا راعيناها جميعا دون إقصاء لأحدها.[1] وهذا ما صرح به موريس عندما قال: " تفترض اللسانيات التداولية مسبقا كلا من الدراسة التركيبية والدلالية ... لأن المناقشة الحصينة السديدة لعلاقة الأدلة بمؤوليها، تستلزم معرفة علاقات الأدلة بعضها ببعض، وكذا علاقة الأدلة بالأشياء التي يحيل عليها المؤولون".[2] وعليه فسيرورة الدليل أوما يعرف بـ SEMIOSIS تتضمن في نظره أربعة عناصر هي :

1 – العنصر الذي يقوم مقام الدليل أي: الدال.

2– العنصر الذي يشار إليه أي: المدلول.

3 – عنصر الأثر (EFFET) الذي يحدث عند المخاطَب أو المرسل إليه.

4 – المؤوِّل.

ويبدو إن هذه العناصر هي التي أوحت له باستشراف هذه العلوم الأساسية للبحث النظري اللساني.[3]

---

[1] ينظر: المرجع نفسه، ص137.

[2] الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص 11.

[3] ينظر: المرجع نفسه، ص10 – 11.

إن المتأمل لهذه العناصر، وعلى وجه الخصوص العنصر الثالث " **الأثر** " يدرك البعد السلوكي فيها؛ **فموريس** ينطلق في تصوره للتداولية من خلفية فلسفية وضعية وسلوكية، ترى بأن أي محاولة لتفسير الكلام من خلال ما يجري في الدماغ أو العقل ضربا من الكهانة الفاقدة للموضوعية، والتفسير الصحيح يجب أن يمر عبر مفهومي المثير STIMULUS، والاستجابة RESPENSE ، فالأحداث العملية السابقة لعملية الكلام، والأحداث العملية اللاحقة بعملية الكلام تسهمان بشكل فعال في الوقوف على الدلالة.[1] وهذه الفلسفة تنتصر للموضوعية بشدّة، ولكن لحسن الحظ نجده في كتابه الأخير يعود إلى أثر **بيرس** المتعاظم في تفكيره، وذلك حين قال: " إن الذرائعية هي التي تعطي دفعا للتصنيفات الدلائلية أكثر من الوضعية المنطقية".[2]

ومن أهم طموحات **موريس** التي كان يصبو إليها هو توحيد العلوم الإنسانية والطبيعية والفيزيائية تحت سقف السيميائية، انطلاقا من علاقتها المزدوجة ببقية العلوم، فهي علم من بين العلوم، وأداة ومنهج في خدمة هذه العلوم، إذ يمكن للموضوعات التي تدرسها البيولوجيا والعلوم الفيزيائية أن تعد علامات مشروكة بطريقة معقدة، ويتولد عن هذا مشروع واسع لتوحيد العلوم الإنسانية والفيزيائية ضمن إطار نظرية عامة للعلامات، وبهذا يغذِّي موريس

[1] محمد محمد يونس علي: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص 24 – 25.

[2] صابر الحباشة : تلوين الخطاب، فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاج، الدار المتوسطية للنشر ، تونس، الطبعة الأولى، سنة 2007م ، ص 179.

السيميائية بهدف مزدوج لنسقية تنسجم وأفكار **بيرس** وأفكار الأنسكلوبيديا الدولية لتوحيد العلوم".[1]

7- الأفعال الكلامية نواة البحث التداولي:

ثم جاء **جون لانجشو أوستين** البريطاني JHON LANSHAW AUSTIN (1911م – 1960م)، أستاذ الفلسفة بجامعة أكسفورد فوضع نواة التداولية اللسانية المتمثلة في فكرة أفعال الكلام، حين ألف كتابا بعنوان HOW TO DO THINGS WITH WORDS . [2]وهو عبارة عن مجموعة من المحاضرات ألقاها في جامعة هارفاد سنة 1955م ضمن برنامج سمي بـ: " **محاضرات وليام جيمس** WILIYAM JAMES ".[3]

ويمكن إيجاز فكرة أوستين في نقطتين أساسيتين هما :

– **الأولى** : إنكاره أن تكون الوظيفة الأم للتعابير هي الإخبار، وهي وصف حال الواقع وصفا يحتمل إما الصدق وإما الكذب، وسماه بالمغالطة الوصفية، وراح يثبت إلى جانب التعابير الوصفية قسما آخر من العبارات قد يكون

---

[1] فرانسوز أرمينكو: المقاربة التداولية، ص 24.

[2] هذا هو عنوانه الأصلي بالإنجليزية وترجم إلى الفرنسية بـ QUAND DIRE C'EST FAIRE . أما في العربية فمنهم من سماه " نظرية أفعال الكلام "، ومنهم ترجمه " كيف ننجز أفعالا بالكلمات "، وبعضهم " عندما نقول نفعل " .

[3] ينظر: QUAND DIRE C' EST FAIRE (HOW TO DO THINGS WITH WORDS .. J–L AUSTIN) TRA , GILLES LAN , SEUIL , 1970 , P – 40

شبيها لها، ولكنه لا يصف الواقع، ولا يحتمل الصدق والكذب، فإذا طلب منك شخص يد ابنتك فقلت له: زوّجتك ابنتي. فأنت هنا لا تصف عالما خارجيا، ولا يمكن أن يوصف قولك بالصدق أو الكذب، بل بمجرد تلفظك بهذه العبارة فأنت تنجز فعلا تترتب عليه أشياء أخرى، وخلص **أوستين** في الأخير إلى التمييز بين نوعين من الأفعال: أفعال إخبارية CONSTATIVE تصف العالم الخارجي، وتحتمل الصدق والكذب، وأخرى أدائية PERFORMATIVE، وتستخدم لإنجاز فعل ما كالتسمية، والوصية، والاعتذار، وغيرها.

وعلى الرغم من الجهد الكبير الذي بذله **أوستين** في التمييز بين هذين النوعين من الأفعال، فقد استقر رأيه في الأخير على أن معالم التمييز بينهما مازالت مبهمة، وفي محاضرته الأخيرة وهي الثانية عشْرة، قام بتقسيم الأفعال الكلامية إلى خمسة أصناف مع تصريحه بأنه غير راض عنها، وهي :

أفعال الأحكام: وهي التي تعبر عن حكم يصدره حكَم.

أفعال القرارات: وهي التي تعبر عن اتخاذ قرار ما.

أفعال التعهد: وهي التي تعبر عن تعهد متكلم بأمر ما.

أفعال السلوك: وهي التي تعبر عن رد فعل اتجاه سلوك الآخرين.

أفعال الإيضاح: وهي التي تستعمل لتوضيح وجهة نظر ما، وذكر الحجة كالإثبات، والإنكار، والاستفهام، وغيرها.[1]

– **الثانية:** توصل أوستين في فكرته الأولى إلى أن الجمل الإنشائية تنماز عن الوصفية بجملة من الخصائص منها: أن تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحاضر، وتتضمن فعلا مثل " أمر" ، " وعد " ، " أقسم " ، " حكم " ، ويفيد معناه إنجاز عمل ما، ولكنه لاحظ أن المقابلة بين الجمل الوصفية والجمل الإنشائية ليست بالسهولة التي ظنها في بادئ الأمر، فجملة " رُفِعت الجلسة "مثلا لم تسند إلى ضمير المتكلم، ولا هي في زمن الحاضر، ولا تتضمن فعلا، وقد دفعته هذه الملاحظة إلى تمييز جديد مازال مقبولا إلى يومنا هذا.[2]

فقد رفض المقابلة التي أقامها بين نوعي الأقوال وخلص إلى أن كل قول عمل، ولا يوجد– إن أمعنا النظر – جمل وصفية".[3] فكل عبارة تامة كاملة مستعملة لابد وأن تتضمن إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، حيث ميز بين ثلاثة أضرب من الأعمال اللغوية أولها: **العمل القولي** ويتحقق بمجرد التلفظ بشيء ما، وثانيها: **العمل المتضمن في القول** ويتحقق بقولنا شيئا ما، وثالثها: **هو عمل التأثير بالقول** ويتحقق نتيجة قولنا شيئا ما. فعندما يأمر الأب ابنه بتنظيف

---

[1] ينظر: محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 2002م، ص60 – 70.

[2] ينظر آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ترجمة سعد الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، دار الطليعة بيروت، لبنان د – ط، د – ت ،ص 30 – 31.

[3] الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص 23.

الأسنان قائلا :" نظف أسنانك " فهو ينجز عملين متزامنين: عملا قوليا، وهو نطقه بالجملة، وعملا متضمنا، وهو أمره بتنظيف الأسنان، وعندما يجيبه الولد قائلا :" لا أشعر بالنعاس"، فهو ينجز ثلاثة أفعال لغوية: عمل قولي وهو نطقه بالجملة، وعمل متضمن في القول وهو إخبار أبيه عدم رغبته في النوم، وعمل التأثير بالقول وهو إقناع أبيه بإمهاله لتنظيف أسنانه بما أن النعاس لم يهجم عليه بعد.[1]

وجاء من بعده تلميذه **سيرل** (المولود سنة 1932م)، وأستاذ بجامعة بركلي BERKELEY بكاليفورنيا؛ فبنى على ما ابتدأه فأحكم هذه النظرية، ووصلت درجة النضج، وقد قسم الأفعال الكلامية إلى خمسة أقسام مثل أوستين :

الإخباريات : وغرضها الإنجازي نقل المتكلم حدثا ما، ويحتمل هذا القسم الصدق والكذب، ويحتوي هذا الصنف على معظم أفعال الإيضاح، وبعض أفعال الأحكام عند أوستين.

التوجيهات: ويفهم معناها من كلمة توجيه، أي توجيه المتلقي إلى سلوك ما، ويدخل فيها الاستفهام، والأمر، والنصح، والتحدي.

الالتزاميات: وغرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء ما في المستقبل.

التعبيرات: وهدفها الإنجازي هو التعبير عن الشعور الداخلي، ويدخل فيها أفعال الشكر، والتهنئة، والترحيب، والمواساة ، وغيرها.

[1] ينظر: آن روبول وجاك موشلار ، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 31 – 31.

الإعلانيات : وهي التي يكون إنجاز الفعل فيها موازيا لإعلان اللفظة.[1]

ثم جاء الفيلسوف الإنجليزي **بول غرايس** GRICE PAUL (1913م – 1988م) وهو أحد أساتذة جامعة أكسفورد المهتمين بفلسفة اللغة، الذي اشتهر بإسهاماته في تحليل المعنى لدى المتكلم، أوما يسمى بالنظرية القصدية في المعنى، ففي عام 1957م نشر مقالا في الدلالة (MEANING) كان له أهمية بالغة، وبعد مرور عشر سنوات (1967م) ألقى محاضرات " **وليام جيمس** " التي نشر جزء منها سنة 1989م. [2] وكان أهم ما قدمه غرايس في هذا المجال هو المقال المعنون بـ "**المنطق والتخاطب** " والذي يناقش الاقتضاء التخاطبي، وهو في الأصل محاضراته المعروفة باسم " محاضرات وليام جيمس " التي ألقاها في جامعة هارفارد عام 1967م، لكنها لم تنشر كاملة حتى عام 1957م ، ثم أعيد نشرها في كتاب عام 1989م، تحت عنوان " **دراسات في طريق الكلمات** "STUDIES IN THE WAY WORDS. [3]

---

[1] ينظر: J. S .SEARL , LES ACTES DE LANGAGE (ESSAI DE PHILOSOPHIE DU LANGAGE) COLLECTION SAVOIRE , LES LETTRES HERMAN ,PARIS , NOUVEAU TIRAGE , 1996 , P 60- 62.

[2] ينظر: فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان ، ترجمة صابر الحباشة ، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع ، سوريا ، الطبعة الأولى ، سنة 2007م ، ص 84 .

[3] ينظر: صلاح إسماعيل ، نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، الدار المصرية ، السعودية ، القاهرة، 2005م، ص 12- 13.

أعطى **غرايس** الأسبقية لقصد المؤلف على حساب الصورة التي تكسو الفعل اللغوي الذي ينجزه.[1] ولذلك كان أهم ما جاء به الافتراض المسبق، أو الاقتضاء التخاطبي، وهو يعني أن كل عملية تبليغية تواصلية لابد وأن ينطلق المتخاطبون من معطيات أساسية ومعروفة، ولا تحتاج لأن يصرح بها المتخاطبون، وهي تشكل خلفية التبليغ الأساسية والضرورية لنجاح التواصل، وهي متضمنة ومحتواة في القول، سواء تلفظ بهذا القول نفيا أو إثباتا، فعند قولنا مثلا : (أغلق النافذة)، (لا تغلق النافذة)؛ فالمعطى المسبق واحد وهو كون النافذة مفتوحة.[2] ولكن هذا الافتراض المسبق والمتعارف عليه بين المتخاطبين دون تصريح قد يشوبه الخداع، بأن يكون الآمر بغلق النافذة مازحا، أو قاصدا الباب وليس النافذة للدلالة على الباب، فيقع السامع في حيرة من أمره، وهذا شبيه إلى حد بعيد بما ذكره علماء البلاغة من عيوب الكلام؛ وهو التعقيد المعنوي.[3]

فنظرية الاقتضاء تعتمد على الاستعمال بعدِّه ضربا من التعاون الهادف إلى تحقيق التواصل "فلا بد أن تتوافر له درجة معينة من التعاون والتقارب في الأغراض بين المتخاطبين ، ويتجلى ذلك في مبدأ أطلق عليه **جرايس** اسم " مبدأ التعاون " THE COOPIRATIVE PRINCIPLE " يقول فيه: " اجعل إسهامك

---

[1] ينظـر: FRANCIS JAQUE, L'HOMME ET SES SIGNES, MOUTON DE GRUYTER PARIS ,1992 , P-7.

[2] ينظر: الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ص 34 .

[3] ينظر: عبد العزيز عتيق، علم المعاني دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006م، ص 14 - 15.

التخاطبي كما يتطلبه عند المرحلة التي يحدث فيها الغرض، أو الاتجاه المقبول لتبادل الكلام الذي يشارك فيه".[1] وإلى جانب هذه الجهود ينبغي الإشادة بما قدمه آخرون، أمثال **بوهلر**، و**كرناب**، و**لاكوف**، و**جوردن**، و**غوفمان**، حيث أسهم كل واحد منهم بفكرة جديدة، أو شرح فكرة قديمة، أو اعتراض عليها، وهم بذلك يتعاونون جميعا في بناء صرح هذا الحقل المعرفي الواسع والمتشعب في آن؛ ولكن تبقى جهود **أوستين** وتلميذه **سيرل** هي العمل الفارق والمميز في بناء هذا المنهج اللساني، الذي أصبح يؤتي أكله في تحليل الخطابات وتناولها من زاوية تداولية لا تقصي شيئا من عناصر العملية التواصلية.

خاتمة البحث:

وقد تضمنت أهم النتائج البحث:

أولا: التداولية منهج لساني حديث ظهر كرد فعل على الدراسات التوليدية الشكلية للغة؛ بِعَدِّها قدرة عقلية مجردة وغنية عنه آثار الاستخدام والسياق، ما أفقد النحو التوليدي بريقه، وأخذ بزمام البحث اللساني إلى الاهتمام بالمعنى الاستعمالي(الأداء) أكثر من المعنى المجرد(اللغة)؛ ما استلزم لاحقا ظهور مصطلح التداولية في اللسانيات الوظيفية.

[1] صلاح إسماعيل: نظرية المعنى في فلسفة بول غرايس، ص 87.

ثانيا: التداولية كأحدث منهج لساني لم يظهر فجأة، وإنما هو وليد جهود متضافرة، وأعمال متكاملة، حتى وإن بدت متنافرة أحيانا؛ فإن ذلك لا يمنع من الإفادة حتى من الروافد الأكثر تنافرا بين المنابت المعرفية، والسياقات الثقافية المختلفة، وذلك أن النظريات والمناهج لا تولد من العدم، وأن البحث فيها ليس بمعزل عن جذورها الفلسفية، وروافدها المعرفية، وقد رأينا كيف تعاضدت جهود اللساني والفيلسوف والمنطقي والدلالي وغيرهم في صناعة الحقل المعرفي التداولي.

ثالثا: الأفعال الكلامية هي الجذوة الحقيقية للبحث التداولي، وقد حظي بإيقادها كل من **أوستين** ومن بعده تلميذه **سيرل**؛ وعلى الرغم من سعيهما الحثيث للتمييز بين الأفعال الوصفية، والأفعال الأدائية إلا أنهما يصرحان بصعوبة التمييز بينهما ما يؤشر لانفتاح البحث التداولي للمزيد من الإضافات، وأن باب الاجتهاد فيه لم يوصد.

المصادر والمراجع:

1- عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2004م.

2 – صلاح الدين صالح حسنين: الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى.

4- محمد محمد يونس علي: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عام 2004م.

5- فرديناند دي سوسير: محاضرات في الألسنية العامة، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، المؤسسة الجزائرية للطباعة، 1986م .

6- غريب إسكندر: الاتجاه السيميائي في نقد الشعر العربي، المجلس الأعلى للثقافة، 2002م.

6 – إيكو أمبرتو – ملف خاص به – مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الخامس 1919م.

7- ميليكا إفيتش: اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعيد عبد العزيز مصلوح، وفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، 2000م.

8- فرانسواز أرمينكو: المقاربة التداولية، ترجمة سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986م .

9- مسعود صحراوي: التداولية عند العرب، دراسة تداولية لظاهرة (الأفعال الكلامية) في التراث اللساني العربي، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2005م.

10-
PHILIPE BLANCHET : LA PRAGMATIQUE D'AUSTIN A GOFFMAN COLECTION REFERENCE, EDITION, BERTRAND-LA COSTE , PARIS FRANCE, 1995.

11- فان دايك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، بيروت، لبنان، 2000م .

12- الجيلالي دلاش: مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية - بن عكنون- الجزائر 1992م.

13- محمد محمد يونس علي: المعنى وظلال المعنى، أنظمة الدلالة في العربية، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2007م.

14- صابر الحباشة: تلوين الخطاب، فصول مختارة من اللسانيات والعلوم الدلالية والمعرفية والتداولية والحجاج، الدار المتوسطية للنشر، تونس، الطبعة الأولى، سنة 2007م.

15- QUAND DIRE C' EST FAIRE (HOW TO DO THINGS WITH WORDS . J-L AUSTIN) TRA , GILLES LAN , SEUIL , 1970 .

16- محمود أحمد نحلة: آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، 2002م.

17- آن روبول وجاك موشلار: التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سعد الدين دغفوس، ومحمد الشيباني، دار الطليعة، بيروت، لبنان، د - ط ، د - ت.

18- J. S .SEARL , LES ACTES DE LANGAGE (ESSAI DE PHILOSOPHIE DU LANGAGE) COLLECTION SAVOIRE , LES LETTRES HERMAN , PARIS , NOUVEAU TIRAGE , 1996.

19- فيليب بلانشيه: التداولية من أوستن إلى غوفمان، ترجمة: صابر الحباشة، دار الحوار للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الأولى، سنة 2007م.

20- صلاح إسماعيل: نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، الدار المصرية، السعودية، القاهرة، 2005م.

21- FRANCIS JAQUE, L'HOMME ET SES SIGNES, MOUTON DE GRUYTER PARIS ,1992.

22- عبد العزيز عتيق: علم المعاني دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006.